أصالة خبرة المسيحي المعاصر

الميتروبوليت نيقولاوس خاتزينيكولاو مطران ميسوغيا ولافريوتيكي

نقلها إلى العربية الأب أنطوان ملكي

حديث الليلة هو محاولة للتعبير عن شيء يصعب وصفه بالكلمات. إنه محاولة لإعطاء خصائص ومعايير لشيء هو بطبيعته غير قابل للوصف كثيرًا، ولكنه يُدرَك بالأكثر بشكل غير مباشر وأكثر تخفياً. إنه شيء تشكّ فيه دون أن يكون واضحًا بما يكفي لمناقشته. يمكن تحديد النهايات، ولكن من الصعب حصر الخبرات ضمن الأطر اللفظية. هذا ينطبق بشكل خاص على وثاقة اختبار الإيمان والنعمة، والتي تتعلق بأعمق ما في الطبيعة البشرية، بحقيقتنا، التي هي السر الذي يتكشّف باستمرار. إنه ليس عرضًا أو تعبيرًا أو نمطًا من السلوك يتوافق معه الناس.

عندما تكون الخبرة أصيلة روحياً، فإنها تُظهر الجانب الإلهي للشخص الذي يمر بها، ولكن عندما يكون الأمر خلاف ذلك، فإنها تمنع نعمة الله من التصرف في حياته. هذا هو السبب في أن الأصالة هي شرط أساسي للحياة الروحية.

إذن كيف ينبغي مقاربة أصالة الخبرة؟ كيف يجب أن نحددها؟ كيف نشعر بها؟ بالتأكيد هذه ليست قضية فكرية. لهذا السبب، دعونا لا نركّز جهودنا على محاولة فهم ما سَيَلي، ولا ندوّن ملاحظات لئلا ننسى شيئًا ما. دعونا لا نُخضِع براءة عفويتنا إلى عملية تقييم مدرسي، للتأكد من أن كل شيء صحيح تمامًا. هذا الحديث ليس انعكاسياً بمعنى توليد أفكار جيدة أو وجهات نظر نقدية صحيحة. كما أنه ليس إقناعياً بمعنى أنه يضعنا بالقوة على طريق رتيب أحادي الاتجاه من التوافق المطمئِن المُرضي. سيكون الحديث بالأحرى بسيطًا ومن القلب، في محاولة لاستحضار مشاعر التمييز الشخصي في كل واحد منا. لهذا السبب ما سوف تسمعونه لا يقدمه المتحدث كمعرفة أو وجهة نظر، بل كفرصة للمشاركة.

إذاً، في سياق هذا الحديث فليرَ كلٌ منّا مَن نحن بالحقيقة. لا ينظرنّ إلى الصواب والخطأ في ما يقال، بل ما هي علاقتنا بالحقيقة. لا في أي عصر نحن نعيش، بل كيف نعيش وما هي مكانة المسيح في قلوبنا وكيف يتم تحديد المسافة بيننا وبين نعمته في حالتنا الخاصة. وأيضًا كيف تعمل رغباتنا، وكيف نحدّد أهدافنا، وما هو نذير دعوتنا "كأبناء لله" (رومية ٢١:٨)، كإخوة المسيح، كمواطنين في ملكوته وكضيوف على عشائه.

إن كلمات الرب في الإنجيل قاطعة تمامًا: " مَنْ لَيْسَ مَعِي فَهُوَ عَلَيَّ" (متى ٣٠:١٢) ؛ " لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ" (متى٢٤:٦) ؛ "مَن أراد أن يتبعني فليحمل صليبه ويتبعني" (مرقس ٣٤:٨) ؛ و " إِنْ لَمْ

يَـزِدْ بِـرُّكُمْ عَلَى الْكَتَبَـةِ وَالْفَرِّيسِـيِّينَ لَنْ تَـدْخُلُوا مَلَكُـوتَ السَّـماوَاتِ" (مـتى ٢٠:٥).رفض الـرب حـق أحـد تلاميذه كإنسان في حضور جنازة والده (متى ٢٢:٨) ؛ تنبأ بآلام ومحاكمات لمن تبعوه (متى ١٧:٣-٣٤) ؛ ووبخ الفاتر (رؤيا ١٥:٣) ؛ طلب الشيء "الواحد" الذي كان مفقـودًا واقـترح الكمـال ("مَن اراد أن يكـون كاملاً") (متى ٢١:١٩، أفسس ١٣:٤، ويعقوب ٤:١).

الله مطلق. إنه يحوي ويمنح كل ما له اكتمال، بالإضافة إلى كيانه الخاص في شكل مثـالي. إنـه الكـائن، هو كل شيء. إن حق الله يملأنا ولكنه يتركنا أيضًا مع الشعور بأننا نتجاوز اكتمالنـا. إنـه شـيء أكـثر من ذلـك، لا يمكن أن نتبنّـاه كبشـر. بهـذا المعـنى، فـإن مـا يطلبـه الله من أتباعـه ليس تجـاوز القـوة في الصعوبات، إذ إن نعمته ستوفر ذلك، بل الموافقة الحقيقية والنوايا الحقيقية والقرارات المتّسقة. بهـذه الطريقة فقط نتوافق مع الله. بهذه الطريقة فقط يمكننا أن نسير على خطاه ونتعرف على مساراته.

في القراءات الإنجيلية، غالباً مـا نجـد الرسـل يثـيرون أصـالة خـبرتهم الشخصـية لكي يكونـوا مقنِعين. " اَلَّذِي كَانَ مِنَ الْبَدْءِ، الَّذِي سَمِعْنَاهُ، الَّذِي رَأَيْنَاهُ بِعُيُونِنَـا، الَّذِي شَـاهَدْنَاهُ، وَلَمَسَـتْهُ أَيْـدِينَا، مِنْ جِهَـةِ كَلِمَـةِ الْحَيَاةِ." (١يوحنا ١:١). "وَنَعْلَمُ أَنَّ شَهَادَتَهُ حَـقٌّ" (يوحنـا ٢٤:٢١). السـامريون [١] والسـابق المجيـد أيضـاً يستعينون بخبرتهم الشخصية[٢]. أصالة الخبرة هي الحجة الأكثر إقناعاً بما يقولون.

لذلك دعونا نرى ما معنى الخبرة الأصيلة في حياة المـؤمن. بطـرس موثـوق لأنـه حـتى عنـدما يسـقط يكون عفويًا. يسأل عن برهان فيدعوه الرب للسير على الماء. يتعثر ويبـدأ في الغـرق (مـتى ٢٨:١٤-٢٩). يعترف تلقائيًا بأن فم المسيح المقدس ينطق "بكلمـات الحيـاة" (يوحنـا ٦٨:٦). يحثّ الـرب على تجنب الآلام فيوَبِّخ ويقال له أن الشيطان يتكلم في داخله (متى ٢٢:١٦-٢٣). بتعالٍ يرفض السماح للرب بغسل قدميه ولكنه يعود فيرتضي ذلك بطريقة معـبرة بشـكل خـاص (يوحنـا ٥:١٣-١٤). يجـرؤ على قطـع أذن ملخس بعنف (يوحنا ١٠:١٩) فيوبخه الرب كما يجب قبـل أن تُعـاد الأذن بطريقـة عجائبيـة (لوقـا ٥:٢٢). ينكر الرب قبل الآلام مباشرة ويتوب (مرقس ٧٢:١٤). يسمع رسالة القيامة ويشك فيها ولهذا أسـرع إلى القبر لتأكيدها (يوحنا ٣:٢٠-٤). سقط وقام مجدداً. أخطأ وتاب. لم يتظاهر. بل كان ما بدا منه. كان أيضًا حراً عندما كان إنسانًا. أخطأ وصحح نفسه. لم يكن معصوماً من الخطأ، بل كان صادقاً.

ليس الناس الذين لا يرتكبون أخطاء هم الأصيلين، بل أولئـك الـذين يتعرّفـون إلى أخطـائهم، يعـترفون بها ويتوبون. إلى ذلك، الأشخاص الحقيقيون ليسوا عفويين في سلوكهم وحسب، بـل هم أيضًـا أنقيـاء في إيمـانهم. الإيمـان ليس أيديولوجيـة نـدعمها، ولا فكـرة نحتـاج إلى فهمهـا، ولا وجهـة نظـر يجب أن نقبلها. الإيمان ليس شعورًا، كما أنه ليس شعاراً أخلاقيًـا يجب أن نتوافـق معـه، ولا هـو تجربـة نفرضـها على أنفسنا نفسياً. إنه ليس هدفًا يمكن تحقيقه من خلال الجهـد البشـري. الإيمـان هـو النعمـة والحيـاة والحق، وهو يُقدَّم فيمتد وينكشف. الله يمنحه والله يظهره.

ونحن البشر لسنا رائعين لأننا نستطيع تحقيق الكثير، بل لأن الأشياء العظيمة يمكن أن تحدث لنا ويتم إعلانها لنا. كل هذا، مع ذلك، يفترض مسبقًا الصدق والحقيقة والأصالة. بدونها يظل أفق الروح مغلقًا أمام نعمة الله.

بالطبع ، عندما نتحدث عن خبرة أصيلة، غالبًا ما يبدو أننا نعني شيئًا غير ذلك. لذلك لنرَ بالضبط من هم المسيحيون الحقيقيون الأصيلون. في محاولة للإجابة على السؤال: "أي نوع من الناس يجب أن يكون المسيحيون؟" يقول القديس باسيليوس الكبير: "كتلاميذ للمسيح، مكرّسين فقط لما يرونه فيه أو يسمعون منه (متى ٢٩:١١؛ يوحنا ١٣:١٣-١٥)؛ كهيكل مقدس لله، مساكِن طاهرة ومليئة بالأشياء لعبادة الله (يوحنا ٢٣:١٤؛١ كورنثوس ١٦:٦)؛ كأبناء الله متجلّين نحو صورة الله بقدر ما يُمنح لنا هذا (يوحنا ١٣:٨ـ ٣٣؛ غلاطية ٤٩:٤)؛ كالملح في الأرض، بحيث يتجدد المشاركون في الروح ليكونوا غير قابلين للتلف (متى ١٣:٥)؛ كمثل كلمة الحياة، من خلال عدم اكتراثهم بأمور الحاضر التي تبدد رجاء الحياة الحقيقية (فيلبي ١٥:٢-١٦)" [٣].

ويتابع فيقول: "ما هو الخاص بالمسيحيين؟ إنه، تمامًا كما مات المسيح عن الخطيئة مرة واحدة وإلى الأبد، هكذا هم أموات وغير متأثرين بكل الخطايا... وأن لديهم ثروة من البِرّ في كل شيء... وأن يحبوا الآخرين كما أحبنا المسيح... وأنهم يتصورون الرب أمامهم في جميع الأوقات... هم يقظون في كل ساعة ويوم ومستعدون لإرضاء الله في الكمال، عالمين أن الساعة التي قررها الرب قادمة"[٤].

بحسب القديس يوحنا الذهبي الفم: "إذا كنت مسيحيًا، فليس لديك منزل على وجه الأرض. باني بيتنا وخالقه هو الله. وحتى ولو استقبلنا العالم كله، فسنبقى غرباء ومسافرين. نحن مسجَّلون في الجنة؛ هي منزلنا"[٥].

نواجه نفس الموقف المطلق عند الآباء النسّاك، وبالطبع في سلم القديس يوحنا السينائي. "المسيحي هو تقليد للمسيح، بقدر الممكن بالنسبة لنا، في الأقوال والأفعال، في فهم الثالوث الأقدس بشكل صحيح والإيمان الذي لا عيب فيه".

تكون الخبرة المسيحية أصيلة عندما نحب الصليب أكثر من الراحة، والجهاد أكثر من الانتصار؛ عندما نختبر ملكوت الله على أنه أكثر واقعية من أحداث التاريخ؛ عندما يكون إيماننا أقوى من المداولة الصحيحة؛ عندما نميّز الحق في الأسرار أكثر مما نفهمه؛ عندما نكون أكثر صلاة في الصعوبات التي نواجهها وأقل اهتمامًا بالتفكير فيها؛ عندما ندرك أن النعمة أكثر فعالية من جهادنا؛ عندما يكون إخوتنا وأخواتنا أقرب إلينا من أنفسنا؛ عندما نتمكن من تمييز الزائف من الحقيقي والخطأ من الصحيح، وإرادتنا من إرادة الله؛ عندما نرغب بالموت أكثر من الحياة.

المسيحيون الأصيلون يرتاحون للتقليد والعقيدة فيما عندهم أيضًا شيئ جديد وشخصي، شيئ خاص بهم: الاختلاف الذي يوحّد ويزيّن، لأنهم "الجماعة من الأمم، تلك المدعوة جبلاً محروثاً"... "لأن النفس المرتفعة بتعليم المسيح هي جبل".

في النهاية ، صورة الشخص الأصيل ليست شيئًا موجودًا ويجب علينا جميعًا تقليده، بل هي بالأحرى شيء غير موجود ويجب على كل واحد منا أن يبتدعه. إنها الطريقة التي يعبّر بها كل شخص عمّا هو مدعو إليه. الأصالة هي ما يدل على قداسة الإنسان وفرادته.

ما هي السمات المميِّزة للخبرة المسيحية الأصيلة؟

يمكننا أن نبدأ من نهاية الإصحاح الأول من إنجيل القديس يوحنا، ذاك القسم المتعلق بدعوة التلاميذ. هذا المقطع ذو أهمية خاصة، لأنه صورة لكيفية استدعاء المسيح لكل مسيحي على حدة، وفي النهاية ماذا تقدّم لنا نعمة الله ومحبته في الكنيسة فلك الخلاص. في هذا المقطع بالذات، تجري ثلاث منادات، ثلاث دعوات لثلاثة تلاميذ. واحدة للرسول أندراوس، والثانية لفيليبس والثالثة لنثنائيل. أولاً، يستجيب الثلاثة للنداء بفيض من الحماس الروحي. يقول أندراوس: "قد وجدنا المسيح"؛ يركض فيلبس إلى نثنائيل ويقول: "وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء أيضًا، يسوع"؛ بينما يخاطب نثنائيل الرب ويقول: "أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل".

السمة الأولى التي يمكن التعرف عليها للخبرة الأصيلة هي الشعور بدعوة الله والاستجابة التلقائية لها، وهي ما يكمن في عنصر النفس غير الخبيث. على الفور وبشكل مباشر وبدون إعادة تفكير وبدون تردد وبدون عقلانية، تتعرف الروح على الشخص الإلهي وتستجيب لدعوته. كما قال الرب: "هوذا إسرائيلي حقاً لا غشّ فيه". لا يوجد مكر ولا حيرة ولا ارتباك ولا تعقيد. السمات التي كانت مهيمنة في قلب نثانيال هي النقاوة والبساطة.

ليست الحياة المسيحية اكتشافًا شخصيًا أو اختيارًا، بل هي استجابة جريئة للدعوة الإلهية. هي ليست طريقة حياة بل حالة نعمة. إنها لا تنتج أشخاصًا صالحين بمعايير مناسبة وشخصيات حسنة، بل هي دليل على محبة الله لنا وعلى مصيرنا الإلهي.

في سنكسار سحر عيد القديس أندراوس، نقرأ أن هذه التدفقات الروحية العفوية هي نتيجة روح "كدح" "تنتظر حضوره". يقودنا هذا إلى خاصيتين أخريين: أولاً، رغبة مؤلمة واشتياق إلى الله، وشعور بالحاجة إليه؛ وثانياً توقّع مجيء الرب وافتقاده.

ألم النفس هذا والشوق الداخلي والترقّب، التوقع العويص والأكثر عمقاً، ما يسميه الآباء "التهام" الروح، والاستعداد الدائم لمجيء الرب وافتقاده لكي يغيّر روحي ويدخل إلى حياتي، يغيّر ويبدّل

ويحوّل ويجدد مواصفات حياتي الخاصة، والسِمات المحددة لشخصيتي. هذه السياقات هي دليل على خبرة مسيحية أصيلة.

ليس التغيير هو ما يسبب الخبرة المسيحية الأصيلة. قد يؤدي ذلك بنفس القدر إلى الكبرياء والغطرسة. إنما هو الشخص (شخص المسيح) الذي يُحدث التغيير، وهو ضمانة الخبرة وإثبات عظمتها المتوافقة، فهو الذي يتجلى في داخلها.

عند هذه النقطة، تجدر الإشارة إلى أن حماسة الرسل لم تكن مجرد تعبير عن الفرح والاندهاش أو حسن النية، بل عن أنها حائزة على سمات اعتراف كبير بالإيمان، وهو اعتراف تحمله الكنيسة بين يديها ككنز. لقد اعترفوا به منذ البداية على أنه الله: أندراوس اعترف على أنه المسيح؛ فيلبس على أنه الذي كتب عنه موسى والأنبياء؛ ونثنائيل على أنه ابن الله الحي، ومسيحه. وليس هذا فحسب. فقد تقدموا أبعد من ذلك: شاركوا إيمانهم مع الأشخاص في دائرتهم. نشروا الرسالة على الفور وجعلوها عامة. أندراوس "جلب بطرس إلى يسوع"؛ فيليبس أخبر نثانيال: "تعال وانظر"، تعالَ وتذوّق بنفسك. هذه الميزة المتمثلة في مشاركة كنز محبة الله التي تنبع في داخلنا والتي يتمّ التعبير عنها على أنها أرقّ وأروع تعبير عن محبتنا للآخرين ولإخوتنا وأخواتنا هي سمة أخرى مميِّزة للخبرة المسيحية الأصيلة.

سننتهي بخاصية أخرى من هذا القبيل: الاستعداد للمعاناة. كل هؤلاء التلاميذ استشهدوا. ختموا دعوتهم بشهادة الدم. فيما كانت البداية سهلة وتقبّلوا "على الفور" رسالة الرب ودعوته، كانت النهاية بنفس السهولة: لقد أظهروا صلابةً حتى أنهم سفكوا دماءهم بكل سرور من أجله. لقد أعطوه حياتهم، وبقدر ما تبعوه في كرازته الأرضية، رافقوه عن طيب خاطر إلى مملكته، متّحدين معه إلى الأبد.

إن أصالة الخبرة لا تُحدَّد بتفخيم العبارات أو الإثارة المبالغ فيها أو الصدمة المباغتة أو المفاجَأة أو الإعجاب الدنيوي. الخبرة المسيحية سرّية، عميقة وداخلية. خبرة المرأة الكنعانية التي قبلت مقارنة الرب لها بالكلاب. خبرة زكا الذي اعترف علنًا بجِنَحِه. خبرة المرأة النازفة الدم التي سحبت القوة خلسةً من الرب. هذه كلها أمثلة على الأصالة. لم ينتبه أحد لهؤلاء الناس، ولا حتى التلاميذ. لكن الرب سمع صراخ المرأة الكنعانية، هو نفسه رأى زكا ودعاه، وهو شعر بلمسة المرأة النازفة الدم. ولهذا ميّز المرأة الكنعانية، متجاوزًا التلاميذ في القيام بذلك؛ كيف تبيّن زكا وسط الجمع. وكيف استشعر بلمسة المرأة النازفة الدم وفرزَها عن الآخرين. الخبرة الأصيلة مقنعة وحاسمة حتى في أصعب الظروف وأكثرها خطورة. إنها تلفت نظر الله إليها، وتنتقي الناس حتى لو كانوا مختبئين جزئيًا في الحشود، أو في لامبالاة العالم أو انعدام شأنهم.

المسيحي الحقيقي مطمئن ولا يخشى شيئًا، يؤمن بسهولة ويتعاطف ويتفهّم وينشر جوًا من اليقين والشعور بالطهارة.

سمات ممكن تمييزها للخبرة المسيحية غير الأصلية

تنتِج الخبرة غير الأصيلة مسيحيين، بدلاً من أن يخلُصوا في الكنيسة، يشعرون وكأن عليهم أن يخلّصوا الحق. بدلاً من تمييز وجه المسيح في إخوتنا وأخواتنا المسيحيين، نرى خصومًا يجب أن نتغلّب عليهم، أو نرى "شعبنا"، الذين يجب أن يدعموا آرائنا. بدلاً من أن نعهد بحالة روحنا إلى قوة نعمة الله، فإننا نضعها، بإهمال لا يغتفر، تحت تصرفِ مبضَع أساليب العلاج النفسي المشبوهة، أو التقييمات العلمية أو التوقعات العقلانية. بدلاً من تغذية روحنا بتواضع القلب، نغذيها بردود المعرفة والعقل.

في التحديات الأخلاقية الحيوية الحديثة التي تمس حياتنا وتغزو روتيننا اليومي، لا نميّز المحبة التي تحرر ولا النظرة الأساسية التي تأخذنا إلى مجالات من نوع مختلف من المنطق. بدلاً من ذلك، نحن نصرّ بخنوع على التحذلق القانوني الذي يخنق النعمة؛ أو نلجأ إلى تسويات دهرية تبعد النعمة تمامًا. بدلاً من العمل كخلايا مخفية في جسد المسيح الروحي، نرى الكنيسة كنادٍ بأعضاء وكتاب قواعد وحقوق وواجبات؛ كمنظمة بحاجة أن نعطيها مساعدة أكبر من التي يقدمها الآخرون.

لهذا، بدلاً من أن نعيش في الكنيسة كما في قبر دائم يولّد قيامتنا بتواضع عميق وميل إلى التضحية والاستعداد لتقديم التنازلات والاحترام والتقدير للآخرين والتسامح والإيمان بنعمة الله وحدها، فإذ بنا نسلك كما لو أننا نعبر، بمنظور أرضي مع مطالب وحقوق وحساسيات غير منضبطة وأنانية مستخفية ونفاق زائف ومصالح ذاتية تافهة ومقارنات حمقاء ومشاحنات عَرَضية وانعدام الأمان والشعور بالتفوق، والتسويات الملتبسة والبؤس النفسي والدهرية غير المبررة.

إن الأكاذيب التي نقولها لأنفسنا، والمبررات غير المقنعة، وصعوبة قبول النقد وما يصاحب ذلك من سهولة واستعداد لإدانة الجميع وكل شيء بشكل سطحي تمامًا وعادة بمعايير قاسية وعديمة الشفقة، كل هذه تخون قصر نظر مذنب الذي كمنتصر يظهِر نقص حريتنا غير المقبول.

هذا النوع من المقاربات يجعلنا نخترع إلهًا مشكوكًا فيه بحد ذاته. إله يبطل نفسه باستمرار؛ إله يشبه إلى حد كبير بنية نفسية تتميز بالاعتلال والنقص؛ أو ملجأ أيديولوجياً يتميز بعدم الثبات والانتهازية الروحية؛ إله ليس أبًا يحبنا، بل خادم لحلّ مشاكلنا التافهة؛ إله ليس موجودًا ليدعمنا، بل إله اخترعناه لنقدم له الدعم؛ إله غير موجود ولا يستحق بالطبع إيمان أي شخص.

تقودنا هذه النظرة إلى كنيسة هي خليقتنا وليست خليقة الله. فيها أخطاء آلهة أوليمبوس الاثني عشر ومصداقية المنظمات الاجتماعية أو التأمل التجاوزي. إنها آلية تستوعب لفترة، وتشكل جزءًا من تجمع

اجتماعي، وتخفي عظمة الجنس البشري وتنهي إمكانية تحقيق شبه الله. مثل هذه الكنيسة لا تستحق ثقتكم ولا يمكن أن تستحقها. كل ما عليكم فعله هو الاعتراف بذلك مباشرة.

إثم الزمان الحاضر

في منطقنا غير الطبيعي و "غير المنطقي"، يبدو أن كل شخص لا يتحمل المسؤولية الكاملة فردياً. يكمن الثقل الرئيسي في طبيعة النظرة الاجتماعية السائدة القوية وغير الشخصية والأوقات المسعورة التي نعيش فيها. هذه الأوقات لها العديد من الخصائص وبالتأكيد تثير إنجازاتها الإعجاب. لقد حدد عصرنا، من تلقاء نفسه، حدودًا مدهشة يواصل أيضًا العمل لبلوغها. لقد كسر حواجز جاذبية الأرض. لقد أنتج أشخاصًا بسِمات غير معروفة حتى الآن، بأعضاء اصطناعية أو حيوانية، أو بأجزاء من أشخاص آخرين. لقد صنع أنواعًا لم تكن موجودة من قبل. يغير الطبيعة ويلغي قوانينها. يدخل الجسد، ويؤثر على الروح، ويخلق النظرات والعادات، ويحدد السلوكيات. يسافر مسافات لا يمكن تصورها ويدخل أصغر العوالم بوسائل وسرعات وطاقات تفوق كل الخيال. ومع ذلك، فإن سمته الرئيسية هي أنه يعارض الأصالة والنزاهة والحقيقة.

إنه يبتكر وينتج العديد من "الأشباه". غالبًا ما تكون غرف الرسم لدينا مزينة بالورود التي تبدو حقيقية، لكنها ليست كذلك. تظهر استوديوهات التلفزيون خلفيات غير موجودة. يشير المعلنون إلى عوالم لا علاقة لها بالواقع. يرسم الناس أنفسهم ويتظاهرون بل ويخضعون لعملية جراحية من أجل تقديم شخصية غير حقيقية أو جنس لا يتوافق مع هرموناتهم وخصائصهم التشريحية. الإباحية والصورة المثيرة للإعجاب، كما تحكّم "المظاهر" هي السبب في تدمير "الجوهر"، فضلاً عن الحضور الخفي لـ"الوجود".

كلّ هذا أثّر في كيفية رؤيتنا للأشياء وإعطاء شكلٍ زائف لحياتنا الروحية أيضًا. غالبًا ما نتحدث نحن المسيحيين عن تألّق العلم الذي يفترض أنه يتفق مع الدين، وقيمة الديمقراطية التي تسمح للكنيسة بالعمل بحرية، وحقوق الإنسان وكأنها أعظم القيم. ومع ذلك، نعلم جميعًا أن العلم جعلنا أكثر غطرسة من أي وقت مضى، لأننا، مكانَ الله، وضعنا صنم الإنسان الذي يعبد نفسه؛ أصبحت الديمقراطية بديلاً عن إرادة الله والمسؤول هو خياراتنا البلهاء. حقوق الإنسان وضعت جانبًا أحد حقوق الله: التدخل في حياتنا والعمل كإله.

وهكذا انتهى بنا المطاف كمسيحيين نحاول تحقيق شيء ما بأنفسنا، ونجد صعوبة في إيداع ذواتنا لنعمة الله. نحن مسيحيون نحاول بمفردنا اكتشاف أسرار الله، بدلاً من الانتظار بصبر، إلى أن يكشف لنا مجده. نحن مسيحيون نسعى للاستجمام والسكينة، لكننا جهّال بتجربة السلام الداخلي. نحن مسيحيون عندما نقول كلمة "محبة"، نعني نوعًا من المودة الأنانية أو الارتباط المرضي، لأننا نرفض

الاعتراف فيها بالحاجة إلى الصبر والتسامح تجاه الآخرين أو كلفة التضحية بدلاً من خديعة التمتع الأناني.

بكاملها انتقلت هذه الطريقة في رؤية الأشياء إلى عبادة الكنيسة. في أديرتنا نصنع تطريزًا طقسيًا يبدو يدويًا، لكنه ليس كذلك. تحتوي الأثواب والأواني المقدسة على أحجار لامعة تشبه الأحجار الكريمة في الطريقة التي تتلألأ بها، ولكنها لا تشبهها من حيث القيمة الموضوعية. أيقوناتنا تذكارات للأوقات الماضية، لكنها موجودة على الورق، بدون ألوان أو تكلفة، وبدون جهد أو محبة أو ابتكار أو وقت. نحن نصوّر ونشرح بالتفصيل ما يقوم به كهنتنا، لكننا نواجه صعوبة في التعرف على حضور الله في طقوسنا الأسرارية. نطلق على رحلاتنا اسم "الحج"، ولكن روحنا تعجز عن أن تشق طريقها إلى برية الله للقائه. نزور الأماكن المقدسة، دون أن تظهر زيارة الروح القدس في حياتنا. نحن راضون عن "الحركات الخارجية" ولا ننشّط "حركاتنا الداخلية". نحن ممتلئون بالمعرفة اللاهوتية عديمة الفائدة والتي عفا عليها الزمن، لكننا فقراء جدًا في التجربة الروحية الثمينة. هذا هو السبب في أن عبادتنا، التي لا سابق لروعتها الطقسية، هي أعياد أكثر منها سرّ. إنها تميل نحو المشهد أكثر من الصلاة.

إن ثمرة أصالة القديسين هي تأليفهم لنصوص عميقة للغاية، لم يظهر الكثير منها إلا بعد أن رحل القديسون الذين كتبوها عن هذه الحياة. تأكيد ما يسمى بأصالتنا هو أننا نقرأ شهاداتهم أو نناقشها في غرف جلوسنا المريحة، على الرغم من غياب أي شهية للنسك أو إماتة الأهواء الشخصية أو التضحية. قراءة النصوص المقدسة، بدلاً من أن تكون لنصير متواضعين، نستخدمها للحكم على إخوتنا وأخواتنا أو تشويش واقعنا بأحلامنا بإرباك.

لقد غذّى القديسون حياتهم في الألم بالمناولة المقدّس. نحن نستعرض روحانيتنا الدهرية وتبريرنا للذات بتقليدهم في تواتر المناولة، ولكن ليس في أصالة التوبة والإيمان. المعرفة الفكرية التي يتم التعبير عنها بالتوترات والنشر حلّت محل الوحي الاختباري الذي يتم تأكيده بالصمت والهدوء الداخلي والدموع. إننا نتقيأ القديم لتبرير وجهات نظرنا وآرائنا، مع أنا نواجه صعوبة مع ظهور معرفة جديدة تواضِعُنا فيما تعانق إخوتنا وأخواتنا.

لذلك، غالبًا ما تظهر الروحانية المعاصرة بواجهة مخادعة. في الجوهر، هي ليست أكثر من تديّن عقلاني وتقليدية مقلِّدة مخفية وراء تعلّق مريض عاطفيًا بالأشكال والقواعد والأنماط الخارجية والعادات والأشخاص، يتمّ التعبير عنه كَنَزعة محافِظة رخيصة. كل هذا يؤدي إلى فضائل زائفة تخدعنا وترضي الشيطان وتجرح الله. في داخلنا، هي تثير أهواء وضعفات لا تغتفر، وتغذّي القسوة والنفاق وتسمّي نفسها الإيمان والخبرة الأصيلين. ومع ذلك، لا علاقة لها بروح الله وتقليد كنيستنا. كل

ما تفعله هو خلق مسيحيين ذوي أصالة زائفة، لأنها تحوّل الإيمان إلى ضلال واستهزاء وتقلِب الخبرة إلى ارتباك ووهم.

لهذا السبب كثيرًا ما نشكو من أننا مظلومون، ونواجه صعوبات ومطالب مفرطة مفروضة علينا وأعباء لا تطاق يجب أن نتحملها، ومن الإرهاق الروحي، ومن حقيقة أن الله أصم وأن الآخرين من الناس لا يفهموننا. هذا يولّد شعوراً بأن المعجزات لا تحدث، وأنه لا يوجد قديسون، وأن الخلاص صعب. وهذا بدوره يولد الشكوك والأوهام والانهزامية وعدم الرغبة في الكفاح. بشكل عام، إنه يغيّر وجه المسيح فينا. إنه نتيجة طبيعية لوجود أشخاص نظرتهم مشوهة وقد فقدوا الأصالة. أكبر خطر في عصرنا هو أن خبرتنا فقدت طبيعتها الحقيقية، وأنها أكثر فقراً من حيث الأصالة، وفي النهاية هي متغرّبة عن الحقيقة.

عظمة الإنسان "الجديد"

نحن بحاجة إلى خبرة نعمة الله الأصيلة، تمامًا مثل كل مسيحي في تاريخ الكنيسة. إنما في هذا الزمان يبدو الحصول عليها أكثر صعوبة.

تعالج هذه الخبرة عظمة الإنسان "الجديد"، أي الشخص الذي تحوَّل إلى حالة هو فيها مع بقائه إنساناً ليس... إنسانًا. إنه إنسان على شبه الله، على شكل إله، إنسان إلهي-بشري. السيد الإله-الإنسان كان إلهًا كاملاً وإنسانًا كاملاً. إن لم يصر الإنسان-الإنسان إلهًا لا يكون سوى مجرد بشر. من "الإنساني" يحتفظ بالطبيعة ويرفض هيمنة المصطلح الآفِل، ومن "الإلهي" يُحرَم من الطبيعة ويوافق النعمة بتواضع. كل هذا يعني أن المسيحي الحقيقي هو إنسان بامتياز. إنه يبرز طبيعته البشرية ويكرمها ولا يحتقرها ولا يخجل بها ولا يظلمها. لهذا السبب يفهم نقاط ضعف الآخرين ونقاط قوته. الإنسان صغير وكبير في نفس الوقت. في حين أنه ينقص "قليلاً عن الملائكة" فهو أيضًا "كالعشب أيامه"، إذ "الإِنْسَانُ فِي كَرَامَةٍ لاَ يَبِيتُ. يُشْبِهُ الْبَهَائِمَ الَّتِي تُبَادُ".

الإنسان عميق وواسع في نفس الوقت. إنه لغز لا يمكن حله بحد ذاته ولكنه رحيب للجميع. لحياته الحق والمحبة وله حرية القبول وحرية التضحية. لهذا السبب هو محسن للغاية وشركوي. لا يخلُص وحده ولا يتناول الخلاص. يمكن أن يفرغ من أنانيته وأن يتحد بالله وبإخوته.

إلى هذا، الأصالة تساعد المسيحي على السلوك باستمرار على الحافة بين الله والإنسان، بين المنطقي والأسراري، بين المحبة الإلهية والألم البشري، وبين الحرية والطاعة. تلهمه الأصالة على السلوك ما بعد المساحة الشخصية والمقاييس البشرية والزمن الكوني والأنا. في هذه الحدود يختبئ الله. في هذه التالية يلتقي الإنسان بالأخ والأبدية والنعمة والحق والله نفسه.

عندما نتحدّى عقلنا يولد الإيمان. عندما نخاطر بعاطفتنا تأتي النعمة. عندما ننكر إرادتنا نعيش محبته لنا. عندما نقلّص ذاتنا يقوم الله فينا بالقوة.

الخبرة الأصيلة هي القداسة، الشهادة، الرسولية، النبوية. ليست بدون جهد، عرق، دم، ألم، شهادة، واعتراف متواضع. المسيحي الأصيل يعيش الفرح من خلال الجهاد والحرمان والتضحية. يعيش الرجاء من خلال الألم والمرض والبرهان الخفي لنعمة الله والتوقع الدائم للعلامة التي لا يطلبها بل ينتظرها وعندما تأتي لا تفاجئه. إنه يعيش التواضع ببركاته وأفراحه. هذه كلها مبنية على الإيمان.

في وجه الأخ يلتقي المسيح نفسه. بجانبه يتواضع ويحتمل ويفرغ ذاته. يشاركه السقوط، الإيمان، الحياة، النعمة والخلاص. إنه يتحد به. الاختلافات تؤكد الحرية، والتنوع يؤكد فرادة كل شخص كصورة لله. التناقضات تخزي والقواسم المشتركة تسهل المعايشة. الخطايا والتجارب والفضائل والتدخلات الإلهية في حياة المرء تجتاح حياة الآخر. كل شيء مشترك "لا يخلص ما لم يكن قرب أخيه". أساس هذا الموقف هو المحبة.

لكن المسيحي الأصيل يميز بوضوح بين غرور العالم، ميوعة الزمن وزواله، قابلية المواد للتلف، وخداع "هنا" و "الآن"، وهمجية الطرق البشرية، وثخانة العقل السليم. لهذا هو يعمل دائماً في "الآتي". "إنه يعيش على الأرض ولكنه مواطن في السماء". بدلاً من الحاضر يعيش الأخير وبدلاً من هنا يتغذّى من السماء. هذه العقلية يغذيها الرجاء الإلهي. الإيمان، الرجاء، والمحبة" هذه الثلاثة هي أساس الخبرة الأصيلة لكل مسيحي. هذه الثلاثة هي التي تؤلّف المنطق "الآخر". هذا المنطق يجعل الإنسان خفيفاً ونبيلًا بطبيعته، ومتواضعًا في أخلاقه، ومستتراً في اختياراته. إنه يصير ثاقباً ومتبصراً وشفافاً. "يَحْكُمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ لاَ يُحْكَمُ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ". على وجهه ينعكس الله، وفي داخله نور نعمته. أنت تراه فتعترف بأن "الرب حي". الإله الحقيقي حي، وهو الذي لا يُرى بالجسد ولا يُفهم بالتمعّن.

في الوقت نفسه، إنه كثير لأنه دائمًا شامل وكامل ومع الجميع. أنت تعيش بجانبه لكنك تشعر معه. لأن خبرته تتشكل من "ليكونوا واحداً". هو ليس وحيدًا أبدًا وليس فقط مع البعض ولا حتى مع القليل بل عنده مساحة للجميع. الله يسطع فيه.

هذه الأصالة هي ما لا يجعل المسيحي "معاصراً " دنيوياً؛ مقلِداً سطحياً وداعماً سلبياً لعادات العصر الذي يعيش فيه. هو "معاصر" بمعنى تجسد رسالة الله الخالدة في الحاضر. إنه يجسّد تقليد الكنيسة ولكن أيضًا صورة أبديتها. إنه الإنسان البارز الذي يربط "الجمال القديم" "بِالْمَجْدِ الْعَتِيدِ أَنْ يُسْتَعْلَنَ فِينَا". جمال ومجد لا يُظهران عظمة الإنسان فحسب بل يشيران قبل كل شيء إلى الجمال الإلهي "أفضل من كل البشر" وإله الثالوث "الفائق التمجيد".

الأصالة والحقيقة حتى لو كانت تخضع لضعف الإنسان ونقصه وعدم كماله، هي الطريق إلى الكمال والقداسة. على العكس من ذلك، فإن العقل المشوَّه والتنازلات والصورة المجمَّلَة الزائفة تخنق قوة نعمة الله وتجعل الإنسان غير مُكتَنَفٍ بسرّ الله وألوهيته.

بهذا المعنى، لا يعود الإنسان الأصيل نموذجًا للكمال الأخلاقي فحسب، بل يتحول بشكل أساسي إلى وعاء إعلان للحقائق العقائدية. إنه يعيش حالته البدنفسية (psychosomaticity) وتناغم الطبيعة البشرية ومصيره الإلهي بحسب المسيح. إنه يختبر تكوين ثالوث روحه وشركة المحبة مع الإخوة في الثالوث. إنه يعيش ويعلن عن التدبير الإلهي بكامله، وتنازل التجسد الإلهي، والإعلان الثالوثي في المعمودية، وإشراق التجلي الإلهي وتبدّله، وعمق إعلان العشاء الأخير والمجد الإلهي، وإفراغ الذات في الآلام، وتجديد وتغريب الكل في القيامة، وتأليه الطبيعة البشرية بالصعود، وانسكاب المواهب المقدسة في العنصرة، وولادة ومسار العهد الكنسي في محيط التاريخ وأخيراً رجاء الحياة الآتية.

كما أن طهارة العذراء مريم وبتوليتها هما الشرط الأساسي لمشاركتها في سر التدبير الإلهي، بنفس الطريقة، فإن عذرية الحكمة، أي الأصالة، تجعل المسيحي قادرًا على المشاركة في سر التجسد.

المسيحي الذي يتقلقل من الشطارات العقائدية، ولا يلتهب من إعلان الأسرار، ولا يستعر من الشوق الإلهي، ويسيطر عليه التعالي، ولا يشعر بعلامات حضور الله، ولا يدرك بصمات قوته، فليس عليه ختم الله. الله بالنسبة له هو احتمال، كائن مجرد، قوة فائقة، المجهول الفلسفي، النموذج الوجداني، ومكمل الفراغ النفسي.

خاتمة

إن أعظم نماذج الخبرة الأصيلة في سير القديسين لكل مسيحي في كل عصر هما الجدّان الأولان اللذان كانا كالأطفال وتلاميذ الرب. لذلك يمكننا أن نقول أن في الواقع مَن يستعيد سمات الجدّين الأولين، تصير تعابير الأطفال الصغار وخصائص تلاميذ المسيح أصيلة عنده. "إن لم تعودوا كالأطفال لن تدخلوا ملكوت السماوات".هذه الصيغة وحدها تظهِر أن العودة إلى هذه الحالات هي مَصْل الحياة الروحية وشرط للخلاص.

العاري أصيل، إنه الإنسان الذي يظل مكشوفًا، غير محمي، بدون دفاعات ودروع، كالجدّين الأولَين قبل السقوط؛ كالرسل. كلما فهمتَ جهلك بتواضع - ما لا تعرفه وما لا تستطيع أن تتعلمه - كلما اقتربت أكثر من الإحساس بالسرّ والكشف عن المعرفة الحقيقية. لأن المعرفة هي التواضع والنعمة، وليست الفهم والقدرة.

إذاً، الإنسان الأصيل هو الذي لا يرى يد الله في كل مكان فحسب، بل يشعر دائمًا بلمسته. لقد نحته الله مثل أول مخلوقات الفردوس. إنه يتجدد، ويعاد تشكيله، ويشعر بنعمته الإبداعية. في الوقت نفسه،

يقبل حضور الله المحب، وعناقه مثل الأطفال الصغار، ويختبر دفء محبته. أخيرًا، يعرض الله عليه أن يلمس كما الرسل. إنه يستقرئه ويثبته دائماً. التجديد يؤدي إلى "إصلاح الجمال القديم"، إلى عيش الكلمة الإلهية كحالة حميمة حيث يمنح العناق موهبة اللاهوت، ويقدم اللمس تأكيد الإيمان والخبرة الشخصية.

الأصيل يستعلن الله له

قد يكون ما سمعتموه خلق شعوراً بالمبالغة. أو ربما ترك صدى من الإحباط أيضاً. نحن غرباء جداً، بعيدون جداً عن كل هذا! لكننا أيضًا قريبون جدًا وأنسباء جدًا. كل هذا موجود في الطبيعة البشرية. إن كنيستنا تدعونا ببساطة إلى معرفة كياننا، ولإيجاد بدايتنا كبشر، كأشخاص، كمسيحيين، لنصبح من جديد أوَّلِيين كالجدين الأولين، أبرياء كأطفال صغار وعفويين كالتلاميذ. في النهاية، لم يكن الهدف من هذا الحديث تقديم موقف ممكن تقليده، خبرة أصيلة، بل تقديم معيار للمقارنة ومادة للاتضاع، فكر أصيل.

Source: Ομιλία στο Τομέα Επιστημόνων του Συλλόγου ιεραποστολικής Δράσης «Ο Μέγας Βασίλειος» 12-10-2003. http://www.pigizois.gr/pneumatikoi_logoi/afthedikotita.htm